الإخوان المسلمون في أوروبا:
دراسة تحليلية لتنظيم إسلامي

المؤلف : سمير أمغار

ترجمة: دينا محمد

مكتبة الإكسير الإلكترونية
Al-Exir Electronic Library

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

مراصد ١٠
كراسات علمية محكمة تصدر عن وحدة الدراسات المستقبلية، مكتبة الإسكندرية

مراصد

كراسات علمية ١٠

الإخوان المسلمون في أوروبا:
دراسة تحليلية لتنظيم إسلامي

المؤلف : سمير أمغار

ترجمة: دينا محمد

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

مراصد ١٠

كراسات علمية محكمة تعنى برصد أهم الظواهر الاجتماعية الجديدة لا سيما في الاجتماع الديني العربي والإسلامي، تصدر عن وحدة الدراسات المستقبلية بمكتبة الإسكندرية.

تأليف: **سمير أمغار.**

الإخوان المسلمون في أوروبا:
دراسة تحليلية لتنظيم إسلامي

المؤلف : سمير أمغار

ترجمة: دينا محمد

مكتبة الإسكندرية بيانات الفهرسة– أثناء النشر (فان)

أمغار، سمير.

الإخوان المسلمون في أوروبا : دراسة تحليلية لتنظيم إسلامي / تأليف سمير أمغار ؛ ترجمة دينا محمد.– الإسكندرية مصر : مكتبة الإسكندرية وحدة الدراسات المستقبلية، ٢٠١٢.

ص. سم. (مراصد؛ ١٠)

تدمك: 978-977-452-199-8
يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية.

١. الإخوان المسلمون (أوروبا) ٢. الإسلام و السياسة. ٣. أوروبا –– أحوال سياسية. أ. محمد، دينا. ب. مكتبة الإسكندرية. وحدة الدراسات المستقبلية. ج. العنوان. د. السلسلة.

ديوي – 305.697094 2012626668

ISBN: 978-977-452-199-8
رقم الإيداع: 13664/2012

جماعة الإخوان المسلمين هي اليوم، من دون شك، أهم تكتل إسلامي في العالم العربي على الإطلاق، فهي ترأس الحكومة في الأراضي الفلسطينية المحتلة، وهي عضو في الائتلاف الحكومي في الجزائر، كما أنها القوة السياسية الأولى في مصر وتونس. ظهرت جماعة الإخوان المسلمين في أوروبا في أواخر الستينيات، وقد أسَّسها في البداية لاجئون سياسيون وطلاب وفدوا من المشرق والمغرب بغرض الدراسة؛ حيث شرع شباب المهاجرين من العالم الإسلامي في الانضمام إلى صفوفهم منذ ذلك الوقت. وقد استمر حجم هذا التنظيم في الازدياد – رغم هزاله في البداية – منذ أوائل الثمانينيات ليصبح، وخلال عقدين من الزمن، التنظيم الإسلامي الأكثر ثقلاً في أوروبا. وتتمتع الجماعة بقوة تنظيمية كبيرة تجعلها محط أنظار الجماعات الإسلامية المنافسة؛ حيث تحظى بإمكانيات مالية مدهشة مكَّنتها من نسج شبكة ضخمة من الخدمات الاجتماعية والدينية في أوروبا خلال عشر سنوات.

كيف نفسر أن أوساطًا دينيةً، من الشرق الأوسط إلى أوروبا، قد اجتمعت باختلاف اتجاهاتها على طريقة واحدة في التعبير عن انتمائها للدين الإسلامي؟ لماذا تجد مثل هذه الاصطلاحات الدينية الآتية من الشرق صداها لدى شباب مسلم نشأ وتعلم في أوروبا؛ حيث إن أغلبهم من المتحولين دينيًّا؟ إلامَ يرجع نجاح هذا التنظيم في الأوساط الإسلامية الأوروبية وخاصة الفرنسية؟ كيف نفسر الرواج الذي تلاقيه جماعة الإخوان المسلمين بين الشباب بالرغم من التنديد بها؟ تهدف هذه الدراسة إلى تقديم دراسة تحليلية حول الإسلام "النضالي" الذي أوفده الإخوان المسلمون إلى أوروبا، والذي يسعى للانتشار منذ عدة أعوام وسط بعض شرائح المجتمع الإسلامي بها. بمعنى أكثر دقة، يتعلق الأمر بتتبُّع سجلات الدعوة لحركة هي من صميم حركات إعادة الأسلمة من خلال تحليل المناخ

النفسي والأيديولوجي لتلك المجموعات، وذلك عبر دراسة لأدوات التعبئة والتنشئة التي تستخدمها لحشد شباب الجاليات المسلمة في أوروبا.

١- من هم الإخوان المسلمون في أوروبا؟

أسَّس حسن البنا جماعة الإخوان المسلمين في مصر عام ١٩٢٨م، وقد أصبحت في غضون سنوات قليلة فاعلاً أساسيًّا في الحياة السياسية المصرية، وأنشأت تدريجيًّا عدة فروع لها في أنحاء الوطن العربي. وإذا كان التنظيم الدولي للإخوان المسلمين قد استند في بداياته إلى افتتاح فروع وطنية منبثقة مباشرة من الجذع الأم (كما هو الحال في الكويت وسوريا التي تأسست فيها فروع في الأربعينيات)، فإن إستراتيجية النمو قد تنوعت شيئًا فشيئًا منذ السبعينيات. ففي أوروبا، يعتبر الإخوان المسلمون أشبه بالسديم؛ أي بتيار فكري ذي تأثير ومرونة يمتد لشتى المجالات، كذلك فهو أشبه بحركة فكرية اتخذت أشكالاً متعددةً؛ لتقف في منتصف الطريق ما بين تكوين شبكات قابلة للتكيُّف وبين إنشاء منظمة دولية ذات هيكل هرمي. لقد حاولنا، ومن خلال أشكال التعبير المختلفة التي تبناها الإخوان المسلمون في أوروبا، تصنيف أشكال الانتماء لأيديولوجية الإخوان المسلمين. وحتى نتمكن من فهم هذا التصنيف بشكل جيد، فمن الضروري أن نأخذ في اعتبارنا أننا نتحدث عن بناء "نموذج مثالي"، وأنه ليس من السهل أن نُعرِّف بشكل قاطع وواضح تشكيلاً إخوانيًّا مُعينًا تبعًا لأي نمط من الأنماط المعروفة، حتى إذا كانت هذه الجماعة أو تلك أكثر تعبيرًا عن هذا التشكيل أو ذاك. هذا وقد رصدنا ثلاثة تيارات تعبِّر عن الإخوان المسلمين، وهذه التيارات هي: المستقلون، والمعارضون، والأعضاء العاملون.

المستقلون هم أول فئة من الإخوان المسلمين، وهي فئة مكوَّنة من هياكل أو شخصيات لا تنتمي بأي شكل من الأشكال إلى التنظيم الدولي للإخوان المسلمين، ولكنهم يستلهمون أفكاره في أسلوب عمله وتنظيمه وخطابه على غرار "رفاق الطريق" الداعمين للحزب الشيوعي الفرنسي. إنهم يتحركون كفاعلين مستقلين. يقع مثال طارق رمضان بسويسرا ضمن هذا الإطار؛ فبالرغم من انتمائه لعائلة تنتمي رسميًّا إلى الجماعة الأم في مصر فإنه،

على عكس شقيقه هاني، رفض أن يدين لها بالولاء مفضلاً الاحتفاظ باستقلاليته مع استمراره في الانتماء إلى التيار الإخواني. ويمكن أن نعتبر أن "اتحاد شباب المسلمين" في فرنسا يندرج تحت هذه الفئة.

ثم تأتي الفئة الثانية المكوِّنة للسديم الإخواني وهي فئة "المعارضين"، وهي مكوَّنة من شخصيات وتنظيمات قررت الخروج عن الاتجاه السياسي المهيمن للإخوان بالرغم من انتمائها للتنظيم الدولي. وهم في الواقع شديدو الانتقاد لبنية الجماعة والتي يعتبرونها ثقيلة وبيروقراطية. ويجب علينا التمييز بين نوعين من المعارضين؛ النوع الأول: هو الذي مازال ينتمي للتنظيم، ولكنه يعارض طريقة عمله وتوزيع السلطة بداخله، كما هو الحال مع عبد العزيز باغزّة مؤلف كتاب "ممنوع دخول الكلاب والنساء المحجبات" (Entrée interdite aux chiens et aux femmes voilées). النوع الثاني: يمثل شخصيات قررت الانفصال عن الجماعة وتكوين تنظيمات منافسة، وهم لا يعارضون الأسس والأهداف الأيديولوجية للتنظيمات الإخوانية، وانما أشكال وأساليب عملها، ولأنهم لم يستطيعوا "تطهير" التنظيم فقد قرروا تركه. لقد أسس عدد من "المحبطين" من أداء اتحاد المنظمات الإسلامية بفرنسا (UOIF)، على رأسهم حسن فرسادو العضو السابق في الاتحاد، أسَّسوا "الاتحاد الإسلامي" (UAM93) في عام ٢٠٠١م، ضامّين إليهم تسعة من أهم مساجد مقاطعة سين – سان – دوني بالإضافة إلى أربع عشرة جمعية مؤيدة لهم.

وأخيرًا تقع الفئة الثالثة وهي فئة الأعضاء العاملين، وهي مكوَّنة من شخصيات وجماعات تتبع الجماعة الأم بمصر، ويخضعون لسلطة المرشد العام الذي أقسموا له بالولاء. ويمكن تشبيه نشاطهم بنشاط الفروع التجارية ذات حق الامتياز؛ بمعنى أنهم يلتزمون بالمبادئ العامة لأيديولوجية الإخوان المسلمين، لكنهم يحتفظون باستقلاليتهم في تطبيق فكر الإخوان. مثال على ذلك الحزب الإسلامي "حركة مجتمع السلم" بالجزائر، والذي يرأسه أبو جرة سلطاني. ويعتبر "اتحاد المنظمات الإسلامية في أوروبا"، ومقره الرئيسي بروكسل، ممثل الإخوان المسلمين في أوروبا.

٢- **تجنيد انتقائي**

بالرغم من أنه يصعب تحديد الطريقة التي يتبعها الإخوان في تجنيد أعضائهم بدقة، فإنه من الممكن إعطاء بعض المؤشرات عن أدوات التعبئة التي يستخدمونها. يتم تجنيد الأعضاء وفق ثلاث مراحل: بداية، يبدأ العضو المحتمل في التردد على المؤتمرات والمساجد والأنشطة الثقافية التي ينظمها الإخوان، يحاول الإخوان لاحقًا إيقاظ حسِّه الديني وتشجيعه على الصلاة والذهاب إلى المسجد والتفقُّه في الدين وزيارة إخوانه، ثم يتم إلحاقه بحلقات تعريفية يتعرف فيها على أهمية العمل الجماعي في الإسلام. وإذا أبدى الشخص اهتمامه بالجماعة، تُسند إليه بعض المهامِّ المحدَّدة، ويتم إشراكه في رياضات جماعية، واختباره. إذا التزم الشخص المجند فور اتصاله بالإخوان، فقد تم إذن اختياره من قِبَل التنظيم وليس العكس.

يخضع الشخص المراد تجنيده بعد ذلك، ودون علمه، لعملية بحث وتحرٍّ عن شخصيته وعلاقته بعائلته..إلخ. فإذا لاقى استحسان الجماعة، يُعرض عليه الانضمام إليها. ويتم إقناعه، فيما بعد، بالعمل مع الجماعة وينظَّم له لقاء مع المسئول الإقليمي؛ حيث يعرِّفه بالحركة ويسأله مجموعة من الأسئلة؛ للتأكد من أنه أهل للثقة. وما إن ينجح المرشح في اجتياز المقابلة، فإنه يؤدي قسم الولاء لمرشد التنظيم الفرنسي أمام المسئول الإقليمي. وبهذا يصبح أخًا ملتزمًا، وهذا يعني التزامه بالمشاركة في الأنشطة المختلفة للحركة وتمويلها بنسبة ٢,٥٪. ولاستكمال تدريبه، يلتزم بحضور ندوات حول التيارات والحركات الإسلامية المختلفة، يتم خلالها الإجابة عن أسئلته. ويظل التعليم الذي يتلقاه الأعضاء الجدد مطابقًا للمنهج التقليدي للإخوان؛ حيث تقع كتابات حسن البنا وسعيد حوَّى ومحمد قطب على رأس القائمة، بالإضافة إلى كتابات يوسف القرضاوي التي يكثر الإخوان من قراءتها.

أخيرًا، إذا أظهر الأخ الملتزم الحماسة الكافية وروح المبادرة، يُعرض عليه الارتقاء داخل التنظيم، فيعيد القسم مجددًا أمام المسئول الإقليمي، ويتعهد بأن يصبح أكثر التزامًا تجاه الجماعة. وعندئذ يتعين عليه دفع ٥٪ من دخله لصالح الجماعة، كما يعزز من التزامه

الديني؛ ليصبح بذلك أخًا "عاملا". لقد نجح الإخوان المسلمون في أوروبا، من خلال هذا التنجيد الاختياري والانتقائي، في تجنيد ما يقرب من ألف عضو في فرنسا، ومائة عضو في إيطاليا، وخمسين عضوًا في بلجيكا.

٣- تنظيم هرمي مُحَدَّد البِنية

إن العمل الدعوي للإخوان المسلمين في أوروبا مكَّنهم من تأسيس خمسمائة مؤسسة في ثمانية وعشرين بلدًا أوروبيًّا، وذلك عن طريق "اتحاد المنظمات الإسلامية في أوروبا" الذي يقع مقره في بروكسل، والذي كان يديره لوقت طويل البريطاني العراقي الأصل أحمد الراوي، ويديره حاليًّا السويدي شكيب بن مخلوف.

وتعتبر "الجماعة الإسلامية في ألمانيا (GID)، التي تأسست عام ١٩٥٨م، الفرع الألماني للإخوان المسلمين في أوروبا الذي أسسه سعيد رمضان عام ١٩٥٨م ، ويرأسه حاليًّا الألماني المصري الأصل إبراهيم الزيات الذي يرأس أيضًا "المركز الإسلامي" بميونخ، وهو منسق أنشطة الندوة العالمية للشباب الإسلامي بأوروبا، كما أنه عضو بمجالس إدارات معظم الهيئات التابعة للإخوان المسلمين(مثل هيئة الإغاثة الإسلامية في برمنجهام ببريطانيا والمعهد الأوروبي للعلوم الإنسانية في بورغون بفرنسا).

أما "رابطة مسلمي بلجيكا" (LMB) القناة التاريخية للحركة في بلجيكا فهي مُمثلة جماعة الإخوان المسلمين هناك، وأسَّس الرابطة عام ١٩٩٧م كلٌّ من منصف شاطار وكريم عزوزي لتتخذ تسميتها الحالية عام ٢٠٠٦م، وزعيمها الروحي هو باسم حتاحت. وتملك الهيئة عشرة مساجد ومقرات بعدة مدن منها بروكسل وأنڤير وجراند وڤرڤييه، ويديرها كريم شملال من مدينة أنڤير، وهو من أصل مغربي يعمل طبيبًا في مجال علم الأحياء.

وتمثل جماعة الإخوان المسلمين في هولندا، "رابطة المجتمع المسلم" التي أسسها في لاهاي يحيى بويافا المغربي الأصل عام ١٩٩٦م. وتضم الرابطة عدة منظمات منها على وجه الخصوص "مؤسسة اليوروب تراست نيديرلاند" (ETN) و"المعهد الهولندي للعلوم الإنسانية والإغاثة الإسلامية".

أما "الرابطة الإسلامية في بريطانيا" (MAB) فهي مُمثلة الإخوان المسلمين هناك. وقد أنشأها كمال الهلباوي عام ١٩٩٧م الذي ظل لوقت طويل ممثلاً للإخوان المسلمين في أوروبا، ويعمل حاليًّا مستشارًا لقضايا الإسلام والجهاد، على غرار المتحدث الرسمي السابق عزام تميمي الذي ألَّف العديد من الأعمال الجامعية عن الإسلام المعاصر مثل "الإسلام والعلمانية في الشرق الأوسط" الصادر عن دار النشر البريطانية "هيرست". ثم تولى إدارة الرابطة الإسلامية في بريطانيا بعد ذلك أنس التكريتي العراقي الأصل وأستاذ الترجمة بجامعة "ليدز"، وذلك حتى عام ٢٠٠٥م. وقد تولى الإخوان المسلمون إدارة مسجد فينسبيري بارك تحت رعاية الحكومة البريطانية.

ويعتبر "اتحاد الهيئات والجاليات الإسلامية في إيطاليا" (UCOII) أيضًا الممثل الرسمي للإخوان المسلمين في إيطاليا، وقد تأسس عام ١٩٩٠م، ويديره محمد نور داشان السوري الأصل. ويضم الاتحاد ما يقرب من مائة وثلاثين جمعية، ويتحكم في ثمانين بالمائة تقريبًا من المساجد في إيطاليا، كما يمتلك الاتحاد فرعًا ثقافيًّا وفرعًا نسائيًّا وآخر شبابيًّا. وبالإضافة لداشان والأمين العام الأول أبي شويمة؛ إمام "المركز الإسلامي" بمنطقة سيغراتي، فإن اثنين من معتنقي الإسلام حديثًا يلعبان دورًا مهمًّا في قلب المؤسسة، وهما عبد الرحمن روساريو باسكيني الذي يتولى إدارة المركز الثقافي في سيغراتي وإصدار مجلة "رسول الإسلام"، وحمزة روبرتو روزاريو؛ سكرتير الاتحاد والمتحدث الرسمي باسمه وأحد مؤسسيه، وهو صحفي يساري سابق وصاحب دار نشر "الحكمة".

وفي سويسرا، فإن الإخوان المسلمين مُمَثَّلون من خلال "رابطة مسلمي سويسرا" (LMS)، التي أسسها عام ١٩٩٤م التونسي محمد كرموس، المقرَّب من الحركة الإسلامية التونسية والذي انضم أولاً إلى اتحاد المنظمات الإسلامية بفرنسا قبل أن يستقر في سويسرا عام ١٩٩١م. محمد كرموس هو أستاذ بكلية الهندسة، وصاحب رسالة علمية في الفيزياء، ومؤسس مقر الرابطة في بلدية بريلي بالقرب من مدينة لوزان؛ حيث يجري إنشاء مركز ثقافي إسلامي كبير. وتدير زوجته نادية القسم النسائي للرابطة، وهو "الجمعية الثقافية

للنساء المسلمات بسويسرا". ويدير "رابطة مسلمي سويسرا" حاليًا عادل مجري، ولديها فروع عدة في جميع أنحاء سويسرا (بازل وجنيف وتيسين وبيرن وزيورخ وغيرها).

في فرنسا، يتمثل الإخوان المسلمون في "اتحاد المنظمات الإسلامية بفرنسا". وتظل فرنسا مركزًا للأيديولوجية الإخوانية؛ إذ بها ما يقرب من مائتين وخمسين جمعية ومائة مكان للعبادة خاصة بالإخوان (في لاكورنوف وديجون ومارسيليا وليل وبوردو وغيرها). وكان "اتحاد المنظمات الإسلامية" يخضع في البداية لإدارة نشطاء تونسيين ينتمون لحزب النهضة الإسلامي، واليوم يرأسه كلٌّ من الفرنسي المغربي الأصل فؤاد، والفرنسي التونسي الأصل محسن نقزو.

وتنقسم المنظمات الإسلامية في أوروبا إلى نوعين؛ الأول: هو منظمات أو جمعيات عامة تتولى الأنشطة الدينية والاجتماعية والتعليمية، وتربطها علاقات تختلف في قوتها بجماعة الإخوان، فهي إما جمعيات دعوية، وإما جمعيات متعاطفة، وإما جمعيات منتمية بشكل رسمي للإخوان المسلمين. والنوع الثاني: هو كيانات أخرى أكثر تخصصًا مكمِّلة لشبكة الدعوة الإخوانية، مثل جمعيات الشباب والطلاب "جمعية الطلبة المسلمين"، وجمعيات المرأة "المنتدى الأوروبي للنساء المسلمات"، وجمعيات إنسانية "الإغاثة الإسلامية"، وجمعيات فلسطينية "لجنة إغاثة ودعم فلسطين"، وجمعيات طبية "ابن سينا".

من هم أعضاء الحركة وكوادرها اليوم؟ من وجهة نظر اجتماعية، فإن الكوادر هم مغاربة ومشارقة هاجروا إلى أوروبا؛ إما من أجل الالتحاق بالدراسات العليا، وإما من أجل الفرار من القمع السياسي في بلدانهم. وفي فرنسا، فإن معظمهم من المغاربة، وقد عرفوا في المدينة الجامعية في بوردو حين كانوا لا يزالون طلابًا جامعيين. ويحظى معظم المسئولين في التنظيم بمستوى تعليم عالٍ، وهم يمثلون بشكلٍ ما "البرجوازية المتدينة" المكوِّنة للحركة الإسلامية، التي تحدَّث عنها جيل كيبيل في كتابه "جهاد، انحدار وازدهار الإسلام". وهم يتقاسمون عدة نقاط مشتركة مع الإسلاميين المصريين والمغاربة: نفس المفهوم المتشدد للإسلام، نفس التعليم الجامعي في مجال العلوم الدقيقة، غياب التعليم

الديني الأكاديمي، بالإضافة إلى العلاقات الشخصية مع شخصيات إسلامية بارزة مثل محفوظ نحناح (تُوفي عام ٢٠٠٣م) الرئيس السابق لحزب "حركة مجتمع السلم" حماس سابقًا. وفي حين أن هؤلاء الكوادر قد نشأوا في المغرب أو في المشرق، فإن هناك فئة أخرى من المؤيدين للفكر الإخواني تشكل جماعة الإخوان المسلمين في أوروبا، وهي تتكون من شباب مهاجرين وُلدوا في القارة القديمة ومعظمهم من طلبة الدراسات العليا. وهم يجدون في نشاط الجمعيات الإسلامية بديلاً عن العمل السياسي أو النقابي، وبالنسبة لبعضهم، فإنهم يجدون تعبيرًا جديدًا عن علاقتهم بالدين، وأسلوبًا جديدًا في الاعتقاد وفي التعبير عن عبادتهم وانتمائهم الديني. يشكل هؤلاء القاعدة الاجتماعية للتنظيم.

إن تواجد الطلاب في صفوف "اتحاد المنظمات الإسلامية في فرنسا" أو "رابطة مسلمي بلجيكا" ينبع، على سبيل المثال، من سياسة تفضل الأنشطة الطلابية في الحرم الجامعي من جهة، خاصة من خلال الجمعيات الشريكة مثل الشباب الإسلامي بفرنسا، والطلاب المسلمين بفرنسا، واتحاد المنظمات الطلابية الإسلامية في بلجيكا، ومن خلال الخطاب الذي طوَّرته هذه السياسة والذي يستند إلى مضامين حول قِيَم مجردة على نحو مفهوم المواطنة، والتي يسهل استيعابها من قبل أشخاص ذوي قدر عالٍ من التعليم، من جهة أخرى؛ يكون الهدف هو تكوين نخبة مسلمة. إن سياسة الجذب هذه قد تم تطبيقها على حساب الشباب المسلم المهمَّش، الذي يسكن الضواحي الفقيرة، والذي تُرك لصالح فكر السلفيين وجماعات التبليغ.

ويوجد بين مسئولي الإخوان المسلمين وشبابهم داخل التنظيم تقسيم للعمل. تسمح المهارات اللغوية والدينية والفكرية التي يتمتع بها الطلاب القدامى؛ (حيث تدربت مجموعة منهم على النضال الإسلامي، وأحيانًا على أساليب الإدارة الشيوعية) تسمح بشغل مواقع صنع القرار، في حين يتولى الشباب الأنشطة الميدانية في الجمعيات المحلية. ورغم أن هذا النظام هو المُتَّبَع منذ نشأة الإخوان المسلمين في أوروبا، فإنه الآن يلاقي رفضًا متزايدًا من قِبَل هؤلاء الشباب الذين يفتقرون إلى فرص الارتقاء داخل المنظمات الإسلامية في أوروبا؛

لأن هذا الارتقاء يعوقه في الواقع قدامى الطلاب المغاربة الذين يحتلون أهم المناصب ويتحكمون في هيكل التنظيم.

في نهاية السبعينيات، كلفت إدارة "حركة الاتجاه الإسلامي" (MTI) (حزب النهضة لاحقًا) مجموعة من الطلاب التونسيين، من بينهم أحمد جاب الله الرئيس السابق لـ"اتحاد المنظمات الإسلامية بفرنسا"، والمدير الحالي للمعهد الأوروبي للعلوم الإنسانية، كلَّفتهم بإنشاء فرع في فرنسا. وقد قام أحمد جاب الله ومعه عدد من الطلاب من تونس والشرق الأوسط، بضم "اتحاد الطلاب المسلمين بفرنسا" (AEIF)، الذي أسسه محمد حمد الله عام ١٩٦٢م إلي "اتحاد المنظمات الإسلامية بفرنسا". وقد شهد اتحاد الطلاب المسلمين بفرنسا أزمة بين عامي ١٩٧٨م و ١٩٧٩م؛ حيث تطلع الطلاب التونسيون القريبون من حركة الاتجاه الإسلامي إلى رئاسة الاتحاد وإلى ضمِّه لفرع التيار الدولي للإخوان المسلمين، في حين كان معظم أعضاء الاتحاد يفضلون البقاء في كنف الفرع السوري للإخوان. وفي مواجهة رفض إدارة اتحاد الطلاب المسلمين بفرنسا لهذا الاتجاه، شهد الاتحاد انقسامًا. فقد قرر "المناصرون للتيار المصري" الانفصال عن الاتحاد وتكوين "التجمع الإسلامي بفرنسا" عام ١٩٧٩م. وأخذت قوة التجمع الإسلامي في التزايد منذ عام ١٩٨١م بفضل انضمام المزيد من المؤيدين والداعمين له، بالإضافة لبعض الكوادر الإسلامية التونسية الذين استقروا بفرنسا بين ١٩٨١م و ١٩٨٨م؛ هربًا من بطش الحبيب بورقيبة ومن بعده زين العابدين بن علي الذي كان قد بدأ في استهداف "حركة الاتجاه الإسلامي". لذا قرر "التجمع الإسلامي بفرنسا"، بفعل تزايد قوته، تأسيس "اتحاد المنظمات الإسلامية بفرنسا" عام١٩٨٣، وذلك بالتحالف مع العديد من الجمعيات والمنظمات الإسلامية بعدة مناطق من بينها بوردو ورانس ونانسي.

وخلال عشرية الثمانينيات، كان نشطاء حزب النهضة التونسي الإسلامي(أحمد جاب الله وعبد الله بن منصور) قد ضمنوا قيادة "اتحاد المنظمات الإسلامية بفرنسا"، وكانوا قد حرصوا على استخدام هذا الكيان كمنبر سياسي؛ لمخاطبة الأنظمة العربية والنظام التونسي على وجه الخصوص. وفي بداية التسعينيات نشب خلاف بين الإدارة وبعض الأعضاء،

معظمهم من المغاربة الراغبين في تحويل نشاطهم نحو الواقع الفرنسي بدلاً من السعي للوصول إلى السلطة في البلاد العربية. وقد انتهى هذا الخلاف بقرار من التنظيم الأم في مصر: يجب على كل فرع وطني العمل في إطار البلد الذي يتواجد به. وقد أدى هذا القرار إلى تهميش الإسلاميين التونسيين الذين اضطروا إلى استكمال مشوارهم السياسي داخل حزب "النهضة" التونسي بفرنسا، والتخلي عن إدارة "اتحاد المنظمات الإسلامية بفرنسا" لصالح الكوادر المغربية التي تدير المنظمة حتي اليوم.

٤- من الدولة الإسلامية إلى الدفاع عن المسلمين بأوروبا وتمثيلهم

في بداية الثمانينيات، كانت الاستعانة بالمناخ السياسي الأوروبي كمناخ سياسي للاحتجاج هي مجرد أداة بحتة. فقد كان الهدف منها هو استخدام تلك البقعة من العالم كمنبر سياسي في مواجهة الأنظمة العربية والنظام التركي، والتي كان الإسلاميون يعتبرونها أنظمة ديكتاتورية. فقد كان هؤلاء النشطاء يعتبرون تواجدهم بأوروبا وسيلة لإصلاح الأنظمة المستبدة في العالم العربي، بعيدًا عن بطشها، مفترضين عودتهم بعد سقوط تلك الأنظمة. كانت تلك الحركات تمثل إذن في الأساس ما يشبه القاعدة الخلفية لمعارضة إسلامية متعددة الجنسيات. لقد بدت لهم أوروبا مجالاً سياسيًا خصبًا لتكوين النشطاء الإسلاميين لحين تحرير المجال السياسي في بلدانهم وتمكّنهم من إقامة الدولة الإسلامية.

ويضاف إلى مسألة معارضة الأنظمة العربية الاستبدادية، نقد الأنظمة الأوروبية من خلال إدانة الإمبريالية الثقافية والسياسية والأخلاقية الغربية التي كانت تعاني منها المجتمعات المسلمة هناك. فقد كانت قراءة تلك التيارات للإسلام ترتكز، من ناحية، على إعادة أسلمة الممارسات الاجتماعية للمهاجرين المسلمين الذين أفسدهم المجتمع الفرنسي؛ من حيث فقدان اللغة العربية، والممارسات الدينية، وصعوبة انتقال الهوية الإسلامية إلى أولادهم المولودين بفرنسا. ومن ناحية أخرى، كانت ترتكز على تسييس الدين، الذي يُعتبر في نظرهم نظامًا شاملاً قادرًا على حل مشكلات المسلمين السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

بيد أن تأثير خطاب الإسلاميين على الجاليات المسلمة بفرنسا ظل هامشيًّا، ولم يؤثر إلا في قطاعات معينة منها اللاجئون الإسلاميون والطلاب الأجانب. ولعل هذه اللامبالاة يمكن تفسيرها بأن المهاجرين كانوا لا يزالون خاضعين في ممارساتهم الدينية (بناء المساجد وتنظيم دروس الدين واللغة العربية) لقنصليات البلاد التي ينتمون إليها. كما أنهم كانوا يعتبرون وجودهم بفرنسا مؤقتًا، وبالكاد توافق عليه السلطات، لذا كانوا يخشون القيام بأي نشاط سياسي من شأنه أن يخل بالنظام العام. إضافة إلى ذلك، لم تكن تطلعات الإسلاميين بشأن تسييس الدين تجد صدًى كبيرًا لدى المهاجرين الذين يتطلعون أكثر للممارسات الثقافية التي تمس حياتهم العملية اليومية. لذا كانت حالات الاحتجاج فيما يخص وضع الإسلام بفرنسا في صفوف المهاجرين متفرقة ومشتتة، ويمكن أن نشير هنا إلى مطالبات عمال مصانع "رينو" المسلمين بتخصيص مكانٍ للصلاة في مكان عملهم.

وفي ظل هذه الظروف، نشب، في بداية التسعينيات، خلاف بين قيادات الإخوان المسلمين في أوروبا وبين تيارٍ يرغب في توجيه نشاطه نحو الواقع الأوروبي بدلاً من السعي وراء السلطة في بلدانهم الأصلية. وقد حسمت الجماعة الأم في مصر هذا النزاع بقرارها الذي يقضي باختصاص كل فرع وطني بالعمل داخل البلد الذي يتواجد به، وقد أدى هذا القرار إلى تهميش "الإسلاميين"ً. ومنذ ذلك الوقت، لم تعد تلك المنظمات بمثابة القاعدة الخلفية للتيار الإسلامي والتي تمهد لعودتهم إلى الساحة السياسية العربية، بل أصبحت مهمتها تمثيل والدفاع عن حقوق مسلمي أوروبا الذين قرروا بدورهم التخلي عن فكرة العودة إلى الموطن الأصلي. وقد ركز هذا الاتجاه الجديد للإسلام النضالي، المنبثق عن الإسلام السياسي، ركّز على العمل الاجتماعي والسياسي في البلاد المُضيفة كسبيل لتمثيل المسلمين والدفاع عن حقوقهم. وقد انضم المنتمون سابقًا لتيار الإسلام السياسي إلى الأجيال الجديدة من الشباب المسلمين ممن ولدوا في أوروبا، خاصة المنتمين منهم إلى الطبقة الوسطى كالطلاب، وذلك عبر ظاهرة إعادة الأسلمة. وستعمل هذه الحركة الجديدة على إدماج المسلمين في المشهد السياسي والاجتماعي الأوروبي من خلال، على

سبيل المثال، دعوتهم للتسجيل في القوائم الانتخابية والتصويت. في هذا المعنى، سعت المنظمات التي تتبنى هذا التوجُّه إلى تأسيس "مواطنة إسلامية".

لقد حاول الإخوان المسلمون في أوروبا – على اختلاف مستوياتهم – إدراج الممارسة الإسلامية في سياق غير إسلامي، وذلك من خلال تكييفها مع الواقع الأوروبي، مع إضفاء الشرعية على الوجود الإسلامي في أوروبا التي باتوا يعتبرونها اليوم "دار العهد" وليس "دار الحرب". وقد أسهمت شخصيات بارزة قريبة من الإخوان المسلمين في وضع أطر الممارسة الإسلامية في أوروبا، مثل طارق أوبرو؛ إمام "اتحاد المنظمات الإسلامية في فرنسا" والذي تحدث عن "شريعة الأقليات"، ومصطفى سيريك ويوسف القرضاوي وطه جابر العلواني الذين صكوا مفهوم "فقه الأقليات"، وطارق رمضان صاحب نظرية "المواطنة الإسلامية"، بالإضافة إلى فيصل مولوي. وينظم الإخوان المسلمون بأوروبا كل عام التجمع الكبير ببلدة البورجيه على مدار أربعة أيام، ويضم مجموعة محاضرات عن التوافق بين الممارسات الإسلامية والإطار الجمهوري والعلماني الفرنسي، بالإضافة إلى سوق كبير للملابس والكتب الإسلامية.

فضلاً عن ذلك، يتحرك الإخوان المسلمون كلما شعروا أن الهوية الإسلامية في أوروبا مهددة؛ فقد تبنوا قضية الطالبات المحجبات اللاتي طُردن عام ١٩٨٩م من خلال المظاهرات والحشد الإعلامي. كما حاولوا بنفس الحماسة منع نشر رواية "آيات شيطانية" لسلمان رشدي باللغة الفرنسية، ودعوا إلى مقاطعة المنتجات الدنماركية في محاولة لوقف نشر الرسوم المسيئة للرسول. وبالتوازي مع تلك الإستراتيجيات، شارك "اتحاد المنظمات الإسلامية في فرنسا" في عملية إضفاء الطابع المؤسسي على الإسلام الفرنسي بفوزهم بالعديد من المقاعد في انتخابات "المجلس الفرنسي للديانة الإسلامية" (CFCM) لعامي ٢٠٠٣م و٢٠٠٥م.

٥- أزمة داخل الإخوان المسلمين

نجح الإخوان المسلمون، بفعل تواجدهم المبكر على الساحة الإسلامية في أوروبا، وامتلاكهم لأيديولوجية شديدة التنظيم وإستراتيجيات للحشد وتقنيات دعوية فاعلة، نجحوا في إيجاد اللغة التي كانت الجاليات المسلمة في أوروبا، خاصة الشباب، في حاجة إلى سماعها. إلا أن فترة النجاح تلك (خاصة في فرنسا في انتخابات "المجلس الفرنسي للديانة الإسلامية" عام ٢٠٠٣م)، قد تلتها منذ ٢٠٠٢-٢٠٠٣م أزمة مزدوجة: أزمة أيديولوجية وأخرى نضالية.

أ) أزمة أيديولوجية: تناقضات اليوتوبيا الإسلامية

تتمثل هذه الأزمة في استنزاف الروايات الكبرى والبناءات الشمولية لنظام المعنى في الإسلام. فقد كانت المرجعية الدينية - التي كانت تغذي مشروع فهم متكامل للعالم - تُقدَّم على أنها الحل لجميع المشكلات على نحو جملة "الإسلام هو الحل" التي يرددها الإخوان المسلمون دائمًا. تلك الصيغة، التي تتعدى كونها مجرد شعار، كانت تنبني على فكرة أن هناك إجابة شاملة مستمدة من الدين كفيلة بحل جميع المشاكل التي يمكن أن يواجهها المسلمون. بيد أن هذه المقاربة الشمولية تعرضت للنضوب؛ لأن الحلول الدينية وحدها قد ثبت عدم كفايتها؛ فنزع القداسة عن الحل الإسلامي على هذا النحو كان قد تغذى، وبشكل مزدوج، من الدروس المستفادة من فشل التيار الإسلامي (في الجزائر وتونس ومصر)، ومن تجارب الحكم الإسلامي(في إيران والسودان)، ومحاولات العنف المسلح في الجزائر ومصر.

وبعد عقدين من عمر ظاهرة إعادة الأسلمة المليئة بالوعود، جاءت النتائج مخيبة للآمال: تمييز ديني، وخيبات أمل بسبب الإسلام، وظروف عائلية كارثية، وضعف أعداد المتحولين للإسلام. لقد فشلت هذه المنظمات في تنفيذ الوعود التي أطلقتها، خاصة الوعد بحياة أفضل بفضل الإسلام. وفي مواجهة تلك الصعوبات، وجدت تلك المنظمات نفسها غير قادرة على الحفاظ غلى نفس القدر من التعبئة حول يوتوبيا تتمتع بالقوة، فضعفت

القاعدة نتيجة للإحباط. وقد ساعد على هذا النضوب الفكري الجمود الأيديولوجي الذي أصاب هذه المنظمات، فالمواقف ظلت كما هي، دون أي تحديث أو تطوير مذهبي، فـ"الأيديولوجية لم تتغير إطلاقًا منذ عشرين عامًا" بشهادة أحد كوادر الإخوان.

لقد استطاع الإخوان المسلمون في أوروبا بكل تأكيد تجديد النظرة الدينية للفقه الإسلامي الذي يركز على الأقليات المسلمة التي تعيش في الغرب. فقد حددت شخصيات بارزة قريبة من الإخوان المسلمين أطر الممارسة الإسلامية في أوروبا، مثل طارق أوبرو؛ إمام "اتحاد المنظمات الإسلامية في فرنسا" والذي تحدث عن "شريعة الأقليات"، ومصطفى سيريك ويوسف القرضاوي وطه جابر العلواني أصحاب نظرية "فقه الأقليات"، وطارق رمضان صاحب فكرة "المواطنة الإسلامية"، بالإضافة إلى فيصل مولوي. فقد حاول كل هؤلاء – وعلى نطاقات مختلفة – إعادة الممارسة الإسلامية إلى سياقها الأوروبي، وذلك بتكييفها مع مناخ غير إسلامي، مع إضفاء الشرعية على الوجود الإسلامي في أوروبا، التي باتوا يعتبرونها اليوم "دار العهد" وليس "دار الحرب". ومع ذلك، فإن هذه المساعي لإعادة تعريف المتن الإسلامي من خلال السياق الغربي لم تؤدِّ إلى تطوير عقائدي. حتى أن بعض الأوساط الإسلامية قد أصيبت بالإحباط من معالجة الإخوان للأمور الدينية، التي يرون أنها تتسم بالتشدد المفرط. وفي حين أن الإخوان المسلمين في مصر يضمون بينهم عددًا من المفكرين الذين لهم العديد من المؤلفات، فإن الفرع الأوروبي يتسم بضعف إنتاجه التنظيري. وبالرغم من تنظيمهم للعديد من المؤتمرات حول ضرورة المواطنة الإسلامية، فإنهم يفتقرون إلى المفكرين برغم الخلفية الجامعية المحترمة لكوادرهم، مع وجود بعض الاستثناءات مثل طارق أوبرو؛ صاحب العديد من الكتابات عن شريعة الأقليات ومؤلف كتب "قانون الله، قانون البشر.. الحرية والمساواة والمرأة في الإسلام" بالاشتراك مع الأستاذة الجامعية ليلى بابس، وطارق رمضان؛ الأستاذ بجامعة أوكسفورد.

وبالرغم من الدعوات التي أطلقها عدد من الشباب فإن الإخوان المسلمين ظلوا غائبين عن القضايا الاجتماعية (كالاضطهاد العرقي، وغياب المساواة الاجتماعية، ومشاكل الضواحي...)، مكتفين بترديد مزايا النجاح الجامعي والعملي. منذ ذلك الحين، تفوقت البرجماتية السياسية على التعريف الواضح لأيديولوجية متعالية لتأخذ شكل مجموعة مبادئ عامة تتغير بتغير الظروف السياسية. وهكذا، عندما أدرك العديد من الشباب أن "اتحاد

المنظمات الإسلامية بفرنسا" عاجز عن ترجمة نجاحاته إلى واقع سياسي واجتماعي، فضلوا تركه والانضمام إلى منظمات جديدة مثل "تجمع مسلمي فرنسا" (CMF) و"جمعية المشاركة والروحانية الإسلامية" (PSM).

لقد فقد الإخوان المسلمون "زخم اليوتوبيا" الذي كانوا يتبنونه في البداية، فقد تفككت أيديولوجيتهم عند احتكاكها بالواقع الأوروبي، خاصة منذ مشاركتهم في إضفاء الطابع المؤسسي على الإسلام. وكان قد سيطر على الإخوان المسلمين، حتى منتصف التسعينيات، النموذج الثوري الإيراني. وإذا كان هدف الحركات الإسلامية هو إقامة دولة إسلامية، فقد اختلفت فيما بينها حول الطرق التي يجب اتباعها من أجل الوصول لهذا الهدف، فقطاع كبير ممن أصبحوا اليوم إخوانًا مسلمين كانوا في موطنهم من أنصار استخدام العنف؛ لقناعتهم بأنه السبيل الوحيد لإقامة دولة إسلامية في ظل سياسة التضييق والقمع التي تتبعها الأنظمة الاستبدادية ضد شتى صور المعارضة. هكذا كان قادة الإخوان المسلمين يعتبرون الصراع الذي بدأه الجهاديون الجزائريون شرعيًّا. لقد كانت علاقتهم بالعنف مبهمة فلم يكونوا يدينونه صراحةً، حتى أنهم كانوا يذهبون أحيانًا إلى تبريره في حالات مثل أفغانستان والشيشان والبوسنة والأراضي الفلسطينية المحتلة. تحوُّلُ الإسلاميين من الإستراتيجية الثورية إلى سياسة إصلاحية ومحافظة يذكِّرنا بالتحولات الأيديولوجية التي مرَّ بها الشيوعيون في أوروبا، والذين كانوا يناضلون ابتداءً؛ لأجل التغيير الجذري للمجتمع قبل أن يتجهوا بالتدريج إلى تبني إستراتيجية تقدمية. وبالرغم من مشاركة الحزب الشيوعي الفرنسي في الانتخابات، فقد كان دائمًا ما يعلن تأييده للسياسة الثورية حتى بعد وصوله للسلطة. وحتى عام ١٩٧٧م، كان برنامج الحزب الشيوعي الفرنسي يقضي بإرساء ديكتاتورية البلوريتاريا، إلا أنه بدأ تدريجيًّا، ومعه الحزب الشيوعي الإيطالي، في التخلي عن الإستراتيجية الثورية لصالح سياسة أكثر توافقية.

يومًا بعد يوم، دخل الإخوان المسلمون بدورهم في "لعبة السياسة". فبمشاركتهم في عملية إضفاء الصفة المؤسسية على الإسلام، اتخذ الإخوان الشكل المؤسسي أيضًا. كما أنهم شاركوا في المحادثات مع السلطات الحكومية خاصة مع وزارة الداخلية. كما

بدأوا في التواصل مع البلديات التي يديرون بعض مساجدها، وتم اعتبارهم الوسيط بين المجتمع المسلم والسلطات على المستوى المحلي والوطني، ويشاركون في الفاعليات الدينية المشتركة، كما باتوا يحظون باهتمام الصحفيين. إن تحول الإخوان المسلمين من الخطاب الراديكالي إلى إستراتيجية التحول إلى أعيان كانت نتيجته المباشرة هي "تخفيف" المطالبات الثقافية لاتحاد المنظمات الإسلامية بفرنسا؛ إذ لم يعد الإخوان المسلمون اليوم، هم نفس المعارضين الذين كانوا عليه في سنوات التسعينيات. وفي عام ١٩٩٥م، تم استبدال رئيسَي "اتحاد المنظمات الإسلامية بفرنسا"، أحمد جاب الله وعبد الله بن منصور المقربَين لـ"حركة الاتجاه الإسلامي" والمعروفَين بتشددهما باثنين ذوي توجُّه أكثر براجماتية، وهما الحاج تامي بريز وفؤاد علوي. وقد اتسمت طريقة معالجتهما لمسألة الإسلام بقدر أكبر من التوافق، مما سمح لهما بتواتر الظهور كمتحدثين لدى السلطات العمومية.

وفي الواقع، إذا كان الإخوان المسلمون قد ظلوا الفاعلين الأكثر هيمنة على الإسلام في أوروبا، فإنهم يعانون اليوم من فقدان متزايد لمصداقيتهم عند الشباب المسلم؛ بسبب تخفيفهم لنبرة المعارضة التي كانوا يتمتعون بها لصالح علاقات زبونية مع الحكومة. لقد كان موقف "اتحاد المنظمات الإسلامية بفرنسا" من مسألة العلامات الدينية عام ٢٠٠٣م متخاذلاً جدًّا ومترددًا. كما حسمت الفتوى الخاصة بالعنف الحضري التي أطلقها الاتحاد أثناء المظاهرات التي اندلعت في نوفمبر عام ٢٠٠٥؛ حيث جُرِّم فيها المتظاهرون على أساس انتمائهم المزعوم للإسلام، حسمت تلك القطيعة مع القاعدة. ويحاول الاتحاد أيضًا نفي تلك الأحكام عنه من خلال تطوير خطاب معادٍ للوهابية يهدف لتخفيف مواقفه المتشددة من جهة، وتقليص تبعيته للإخوان المسلمين من خلال تطوير خطاب جمهوري حول بعض القيم الرمزية مثل المواطنة من جهة أخرى.

وفي إطار المنطق نفسه، يسعى "اتحاد المنظمات الإسلامية بفرنسا" إلى الترويج لإسلام مدني من خلال المواءمة بين "النص القرآني والسياق". ووفقًا للكاتب جيل كيبيل، فإن "تلك التصريحات تهدف إلى إظهار انضمامهم للخطاب السياسي الحالي". ويتماشى

هذا الانخراط في الخطاب السياسي الغربي، في الوقت نفسه، مع تغير موقف الإسلاميين المعتدلين من الديمقراطية في أوائل التسعينيات؛ حين ضاعف حزب العمل الذي كان يرأسه عادل حسين في مصر، وحركة الاتجاه الإسلامي ويرأسه راشد الغنوشي من تصريحاتهما عن مدى التوافق الجوهري بين الإسلام والديمقراطية. وهذا ما يشير إليه تحليل ازدواجية الخطاب؛ حيث يصدر "اتحاد المنظمات الإسلامية بفرنسا" خطابًا حول الاندماج والمواطنة وإقرار القيم الجمهورية بهدف الظهور بمظهر الشريك "الدائم" للسلطات العمومية. ويرى الإعلام والرأي العام وبعض الأساتذة أن تلك التصريحات ليست صادرة عن قناعة، وإنما هي أداة وإستراتيجية يستخدمها الاتحاد للوصول إلى أهدافه.

إن نموذج الاندماج السياسي للإسلاميين – بموافقة من السلطات العمومية – هو بمثابة لعبة ماهرة من "الاندماج الذاتي" و"الاستبعاد الذاتي" التي يمارسونها داخل المنظمات المعنية بالعقيدة الإسلامية؛ فكما يرغب هؤلاء في الظهور كفاعلين دائمين وعنصر من عناصر الاستقرار في نظر المنظمات الأخرى والدول الأوروبية والرأي العام، فهم يرغبون أيضًا في طمأنة قاعدتهم المنجذبة للطابع الاحتجاجي لأيديولوجيتهم. سيكون الهدف إذن هو بناء قوة استقرار سياسية وغير مثيرة للقلاقل، مع إمكانية الحفاظ على قوة المعارضة، لذلك سيتعلق الأمر بجمع الأصوات خارج قاعدتهم الأصلية وإقامة تحالفات ضرورية من أجل تحقيق نتائج أفضل، بل والفوز بانتخابات "المجلس الفرنسي للديانة الإسلامية" إلى جانب منظمات دينية لا تنتمي إلى حساسيات إخوانية. على هذا النحو، تحالفت قائمة "اتحاد المنظمات الإسلامية بفرنسا" مع حركة "ميلي جورش" التركية و"الفيدرالية الوطنية لمسلمي فرنسا" (FNMF) من أجل الفوز برئاسة المجالس الإقليمية للديانة الإسلامية بمقاطعة بورغون. هكذا، وبدخولهم في تحالفات حزبية وانتخابية وبتخليهم عن فكرة امتلاكهم للحقيقة الدينية المطلقة نجحوا في تطوير ثقافة التوافق السياسي. وقد مكّنهم الخطاب الموالي للنظام السياسي من التفاوض على دخولهم الساحة السياسية بشكل سلمي. وبفضل لجوئهم لأساليب سياسية "محايدة" وشرعية، فهم يبدون بمثابة تعبير عن التيار السياسي والاجتماعي المحافظ.

بخروجهم من عباءة الثورة الدينية أصبحوا ينتمون "للديمقراطية الاجتماعية"، ومع تبنيهم لرؤية سياسية تقدمية، فهم لا يطعنون في إطار الدولة ولا في النظام السياسي السائد. وباتخاذهم للشكل المؤسسي، فقد أصبحوا، أو أنهم يطمحون أن يصبحوا منظمات إسلامية معترفًا بها على غرار مسئولي مسجد باريس الكبير أي أن يصبحوا قادرين على إدارة الشأن العام بطريقة توافقية وإصلاحية. لقد تحولت اليوتوبيا الثورية التي كانوا يتسمون بها، عند مواجهتها لحقيقة إدارة العقيدة الإسلامية، تدريجيًّا إلى أيديولوجيا مبنية على شكل ما من أشكال الاتجاه المحافظ. يوافق هذا التطور عملية تنميط خضع لها الإخوان. فباستمرار تواجدهم واستقرارهم بالمؤسسات أخذت الروح الثورية التي كانت تميز خطابهم والحركة الإخوانية في السابق تخبو وتضعف يومًا بعد يوم. فيما تبقى لهم الضروريات العملية للإدارة اليومية العادية ومنها إدارة الشئون الاقتصادية والعلاقات مع السلطات العمومية. تضاف للبيانات المتعلقة بعملية التحول المؤسسي، نتائج مفاوضاتهم مع المؤسسات العامة (مثل وزارة الداخلية، والمحليات...)؛ بهدف الاندماج والحصول على الاعتراف بهم. لقد استطاعت حركات المعارضة الدينية تلك، والتي ظهرت في الستينيات والسبعينيات على هامش المجتمع الأوروبي، أن تتخطى في عشرين عامًا المخاوف التي كانت تثيرها تلقائيتهم الراديكالية وطابعهم الثوري لدى السلطات الأوروبية. كما تمكنت، بفضل إمكاناتها الكامنة من فرض نفسها كممثل أساسي للجاليات الإسلامية ممن أنهكتهم الكيانات التي فشلت في تحقيق تطلعاتهم. إن هذا النجاح المؤسسي لا ينفصل عن اكتسابهم للحكمة والهدوء الذي مكّنهم من أن يلعبوا اليوم دور الوسيط بين المؤسسات والمسلمين.

إن "الديمقراطية الاجتماعية" التي تبنتها تلك الحركات دفعتها إلى تطوير أشكال من النضال أكثر علمانية. ولأن استدعاء المرجعية الاسلامية وحدها يظل مكلفًا دومًا وغير منتج بالنسبة لحركات تسعى لنيل الاعتراف بالمسلمين اجتماعيًّا، شرع جزء من الشباب في إعادة التفكير في مكانة الدين في حياتهم وفق منهج "معلمن" إن لم يكن علمانيًّا بالفعل. فلم يعد الفرع الطلابي لـ"اتحاد المنظمات الإسلامية بفرنسا" بباريس ينظم مؤتمراته عن الممارسات الإسلامية، وإنما عن الأقليات النشطة، وعن التدخين... إلخ. وتمتنع مؤسسة

"الفجر" – القريبة من "اتحاد شباب المسلمين" – منذ عام ٢٠٠١م، على سبيل المثال، تمتنع عن الحشد الديني، ولم تعد ترغب في التقرب من "اتحاد شباب المسلمين"؛ لتركز جهودها على برنامج يتضمن بنكًا للطعام ودعمًا مدرسيًّا وتنظيم نزهات نهاية الأسبوع. ومن ناحيتهم، ترك كوادر الإخوان المسلمين العمل في إطار الجمعيات لصالح العمل على المستوى الوطني، وأحيانًا للانضمام إلى الحركة المناهضة للعولمة، في حين يقر بعضهم بأن "تسييس الإسلام يعد كارثة"، كما جاء على لسان أحد قادة الحركات الشبابية بمدينة ليون.

ب) أزمة نضالية: إنهاك المناضل

يثير النظام البيروقراطي وثقافة السرية التي يتبعها الإخوان المسلمون جدلاً شديدًا. فالشباب الأوروبي المولود في أوروبا يرفض هيمنة المهاجرين المغاربة من ممثلي الإسلام السياسي على إدارة الحركات الإسلامية على حساب المسلمين الذين نشأوا في أوروبا، بل وسيطرتهم على جميع المناصب القيادية وعجزهم عن تحديث خطابهم. كما يؤكدون على العلاقات الوثيقة التي كانت تجمع بعض الكوادر بنيكولا ساركوزي عندما كان وزيرًا للداخلية، بالإضافة لاستيائهم من تخاذل الإخوان عند التصويت على قانون منع الحجاب في المدارس عام ٢٠٠٤م، وموقفهم المتحفظ حيال الرسومات الدنماركية المسيئة للرسول عام ٢٠٠٥م. لقد خبا الحماس الذي بثته هاتان المنظمتان والوعود بتغييرات جذرية في التسعينيات تدريجيًّا بحلول الألفية الجديدة.

إن العمل داخل تلك الحركات قد كلف الشباب كثيرًا؛ فالعديد من الطلاب المسلمين بفرنسا قد عانوا من تبعات انخراطهم في تلك الجمعيات على مستقبلهم الجامعي. يقول شرف الدين مسلم، الرئيس السابق لـ"اتحاد الطلاب المسلمين بفرنسا": "أعرف الكثيرين ممن ناقشوا رسائلهم في ظروف سيئة، والذين فقدوا أي أمل في استكمال مشوارهم العلمي؛ لأن أساتذتهم كانوا يلومونهم لانتمائهم لحركتنا". ويخبرنا نبيل شهبون، الرئيس السابق لـ"اتحاد الطلاب المسلمين بفرنسا" بمدينة بوردو، بأنه شخصيًّا كان ضحية عمله

الإسلامي: "لقد كنت رئيسًا للاتحاد في بوردو لعدة أعوام وكان الجميع يعرفونني، موظفو الجامعة وحتى الأساتذة، ولكنهم كانوا يعتقدون أن منظمتنا متشددة. وعندما أردت استكمال دراستي والحصول على شهادة الدكتوراه، رفض المشرف على الرسالة معللاً ذلك بانتمائي لاتحاد الطلاب المسلمين بفرنسا". ووفقًا لناشط إسلامي آخر من أصل مغربي كان عضوًا في جمعية للشباب قريبة من الإخوان المسلمين في بورغون اتجه اليوم إلى العمل الفردي، فإن انتماءه لهذه المنظمات قد أفسد مستقبله كمعلم: "كنت طالب دراسات عليا بجامعة ديجون، وكنت ناشطًا قويًّا داخل المنظمة، وفي الوقت نفسه كنت أدرس الأحياء بهدف أن أتجه للتعليم. ونظرًا لأنني غير فرنسي، فقد تقدمت بطلب للحصول على الجنسية، لكن طلبي رُفض؛ بسبب انتمائي لمنظمة يعتبرونها خطيرة، ولم أتمكن من دخول المسابقات المطلوبة مما اضطرني إلى التخلي عن طموحي". ويشرح لنا أحد الأعضاء السابقين أن تجربته مع الإخوان المسلمين قد غيَّرته كثيرًا: "الإخوان المسلمون هم طائفة. لقد كنت أضحي بكل وقتي من أجلهم، وقضيت عدة سنوات في مجال الدعوة، إلا أنني اكتشفت فجأة أن المسئول رجل فاسد، فتركت كل شيء. لقد أنهيت زواجي وتركت مدينتي للعيش في باريس، وأخضع الآن للعلاج النفسي".

خلف توحُّد مسئولي الإخوان المسلمين، تكمن مواجهة خفية بين فئتي "الحرس القديم" و"التجديديين" فيما يتعلق بشكل وعمل التنظيم. فبينما يريد الفريق الأول الإبقاء على الوضع الحالي، يسعى الآخرون إلى القطيعة مع الثقافة الإخوانية منتقدين ثقل الأجهزة وثقافة السرية التي يتبعها "الحرس القديم". كما ينتقد الأعضاء شكل الانتقائية التي تؤدي إلى تكوين نوع من "الأرستقراطية النخبوية" الإسلامية. ساعد على ترسيخ هذا الانطباع اتجاه قيادات "اتحاد المنظمات الإسلامية بفرنسا" إلى بناء علاقات المصاهرة فيما بينهم؛ على سبيل المثال، فإن حسن إقيوسين الداعية داخل المنظمة، هو صهر طارق أوبرو، عضو مجلس الإدارة وإمام المسجد الكبير ببوردو؛ وبشير بوخزر الذي يشغل منصب مدير قسم الاتصالات، هو صهر فؤاد عَلَوي سكرتير عام الاتحاد. من الضروري في نظرهم إعادة تقييم الثقافة الإخوانية؛ حيث معارضة الانخراطات الفردية، ونزع القداسة عن التنظيم،

ورفض الترتيبات الهرمية. هذا الصراع قاد عددًا من الإخوان المسلمين إلى ترك التنظيم، منهم: شرف الدين مسلم (مدير رابطة المسلمين بمقاطعة جيروند)، وفريد عبد الكريم (المدير الفني لـ"اتحاد المنظمات الإسلامية بفرنسا")، وعمرو مارونجيو (عضو مؤسس بمنظمة الشباب المسلمين بفرنسا). وقد أعلن هؤلاء وغيرهم رفضهم لثقافة السرية التي تتبعها الجماعة، وطريقة عملها التي يعتبرونها شديدة الـ"ستالينية"، داعين إلى تطهير التنظيم الإخواني.

طريقة عمل الإخوان التي لاقت رفضًا متصاعدًا من قِبَل القاعدة أدت إلى انفصال بعض الشباب الذين انضموا إلى تنظيمات موازية على نحو "تجمُّع مسلمي فرنسا" الذي يمثل نوعًا من البديل للمحبطين. وقد ازدادت حدة هذا الانقسام بين القيادات والقاعدة بعد تأسيس "اتحاد المنظمات الإسلامية بفرنسا". فالخلاف بين الفروع الشبابية للاتحاد (الطلاب المسلمين بفرنسا وشباب المسلمين بفرنسا) والقيادات في المركز يتزايد يومًا بعد الآخر، بالإضافة إلى معارضة بعض القيادات الشبابية في الجمعيات للاختيارات الأيديولوجية للمسئولين في التنظيم. وعلى إثر هذا الخلاف، لم يرُقْ للاتحاد انضمام الجمعيتين الشبابيتين المذكورتين لتجمُّع "مدرسة للجميع" المعارض للقانون حول العلمانية الذي يقضي بمنع الرموز الدينية الظاهرة، في حين كان موقف الاتحاد من هذه القضية أكثر ترددًا.

يضاف إلى كل هذه الأزمات التي يجتازها الإخوان أزمة مالية. فبعد فترة الانفراج التي كان يعيشها الاتحاد في الثمانينيات والتسعينيات – حين كانت "الرابطة الإسلامية العالمية" وبعض الرعاة الأغنياء في الشرق الأوسط يمولون أنشطة الإخوان وجماعات التبليغ دون حساب – أصبح الممولون أكثر حرصًا ومراقبةً لما ينفقونه من أموال بعد ارتكاب قيادات الاتحاد أخطاء عديدة ذات طبيعة تجارية؛ فقد مرت مؤسسة "لو جيديس" المُكَلَّفة بتسويق منتجات دينية لصالح الاتحاد بضائقة مالية حقيقية، والمؤتمر السنوي الكبير الذي ينظمه الاتحاد بمنطقة البورجيه لم يعد يدر أرباحًا منذ عدة أعوام بالرغم من إقبال الجمهور. وبالإضافة إلى ذلك، فإن السعوديين الذين كانوا الممولين الرئيسيين للإخوان المسلمين في أوروبا قد شدَّدوا من شروط تلقي التمويلات منذ هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١م.

يحاول الإخوان المسلمون، بالرغم من الأزمات التي يمرون بها، الظهور كنشطاء دينيين فاعلين على الساحة السياسية الأوروبية، فقد أصبحت المرجعية الإسلامية وحدها مكلفة وغير منتجة بالنسبة لمؤسسات تسعى لنيل الاعتراف بالمسلمين اجتماعيًّا. وفي هذا السياق، يلجأ البعض لأساليب أكثر علمانية للنضال؛ بحيث يسعى شباب المهاجرين لفرض أنفسهم على الساحة السياسية خارج الإطار الديني. ومنذ عدة أعوام، وضع الإخوان المسلمون ثلاث إستراتيجيات؛ من أجل تحديد مكانتهم في الحياة السياسية الأوروبية هي: "الزبونية" على المستوى المحلي، و"الإقحام" على المستوى الوطني، و"تشكيل جماعات الضغط" على المستوى الأوروبي. سيصبح التحدي بالنسبة لتلك المنظمات الناشطة من الآن فصاعدًا هو ايجاد إمكانات جديدة لإظهار تدينهم في الفضاء العام دون أن يُفسَّر ذلك على أنه معارضة للقيم الأوروبية. وعلى المستوى الأوروبي، قرر الإخوان المسلمون منذ عدة أعوام نقل مقرهم من بريطانيا إلى بروكسل بهدف التقرب من المؤسسات الأوروبية وتشكيل جماعات ضغط.

الإستراتيجية الثانية التي طورتها الحركات الإسلامية هي "الإقحام". فلم يخفِ الفرع البريطاني للإخوان أثناء انتخابات المحليات الأخيرة علاقاته بحزب "العمل" (خصوصًا بعمدة لندن كين ليفينجستون)، وبحزب "الاحترام" اليساري بلندن، وأيضًا بحزب "الخُضر" في بريطانيا، وويلز بجنوب إنجلترا. وقد ترشح أنس التريكيتي، أحد مسئولي جماعة الإخوان ببريطانيا على قائمة حزب "الاحترام" في انتخابات عام ٢٠٠٤م الأوروبية دون أن يتم انتخابه. بيد أن الإستراتيجية الجديدة يمكن أن تؤتي ثمارها؛ فهناك عضو سابق باتحاد الطلاب المسلمين بفرنسا يشغل حاليًّا منصب نائب عمدة "ران" بفرنسا، كما نجح أحد الإخوان المسلمين في الانتخابات النيابية على قائمة "الخُضر" في السريد. ولا يخفي فريد عبد الكريم، المقرَّب من "اتحاد المنظمات الإسلامية بفرنسا"، طموحه في الفوز بانتخابات المحليات القادمة بمدينة نانت عام ٢٠١٤م.

الخاتمة

بالنسبة للإخوان المسلمين في أوروبا، فإن الالتزام إنما يتأتى عبر أنشطة ومساعٍ سياسية على وجه التحديد (مثل الظاهرات، والعرائض، وحركات المقاطعة للمنتجات...) والتي يتم القيام بها في إطار سياسي جدلي، أو عبر اتباع ديناميكيات تفاوض ونفوذ متبادل. وفي مواجهة السلطات الأوروبية، فإن هذا الإجراء سيستخدم الحوار والبراجماتية؛ وحينئذ يمكن أن نلاحظ ظهور مشاركة سياسية أكثر حيادية وهدوءًا عند شريحة كبيرة من النشطاء المسلمين؛ فهؤلاء الذين أظهروا اهتمامًا سياسيًّا في وقت الأزمات الكبرى المتعلقة بالإسلام على نحو قضايا الحجاب والمآذن، فعلوا ذلك ليس عبر استدعاء المكون الديني، ولكن باللجوء إلى القانون من خلال السعي إلى قضائهم الوطني والمحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان. لم يعد مبدأ الغيرية، الديني والثقافي أو الحضاري الذي كان التيار الإسلامي يدفع به في الثمانينيات والتسعينيات، شرطًا ضروريًّا للتعبير عن الاحتجاج، فقد أكد أغلبية هؤلاء النشطاء أثناء تلك الأزمات، ليس على فكرة كراهية الإسلام المترسخة في الغرب، وإنما على قِيَم حرية الاعتقاد وحرية التعبير لإظهار رفضهم، وعلى التعددية الثقافية بل وعلى العلمانية كأداة لحماية الآراء المستلهمة من الدين. إن التغيير، بالنسبة للأشكال المتعددة للإسلام النضالي، لن يتحقق إذن باحتجاجات يقودها دخلاء لا يستجيبون إلا لحالات التهميش التي تمس بعضهم، كما أن العلاقة الصدامية مع الأغلبية لم تعد السبيل الوحيد لاسترعاء الانتباه. لقد أضحى من الأهمية بمكان اليوم تجديد خطاباتهم السياسية التي أثبتت حتى الآن عدم فعاليتها وتجسيدها للطابع المزعوم الذي يجعل من الإسلام معارضًا جوهريًّا للغرب. إن الرهان الجديد بالنسبة لهذه المنظمات النضالية يكمن في قدرتها على إيجاد إمكانات جديدة للتعبير عن تدينها في الأماكن العامة دون أن يتم تفسير ذلك على أنه معارض للقيم الأوروبية. على هذا النحو، ستثبت ملامح هذه الخطابات الجديدة، لدى الناشطين

المسلمين كما لدى السلطات الأوروبية، ما إذا كانوا قادرين على التكيف مع التغيرات السياسية للمجتمعات الأوروبية. هكذا، فإن تجديد روح الإسلام في سياق المطالبات السياسية المؤهلة سيبدو تطورًا كبيرًا ضمن الطابع الاحتجاجي للإسلام السياسي.

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

وحدة الدراسات المستقبلية

للإستعلام

تليفون: ٤٨٣٩٩٩٩ (٢٠٣)+ داخلي: ٥١٣٢

فاكس: ٤٨٧٩٢٥٢ (٢٠٣)+

بريد إلكتروني: marasedjournal@bibalex.org